الفصل الثامن

الارادة[1]

قد تجلس إلى مكتبك فى المنزل تقرأ وتكتب ، ثم تلوح فى ذهنك فكرة أن الطقس لطيف ، وأنه من المستحب أن تخرج للرياضة قليلاً . وبدون روية أو تدبر تستمع إلى هذا الميل فتترك منزلك وتخرج .

وفى حالة أخرى تضيق بالعمل وتميل إلى الخروج للاستراحة ، ولكنك تحدث نفسك أن إنجاز العمل أفضل ، والبقاء أفضل من الخروج ، وبعد شىء من الروية تلقى بالكتب وتخرج من المنزل .

وفى حالة ثالثة تتردد طويلا بين الاستمرار على الكتابة والانقياد لدافع الخروج ، فتجد بعد كثير من التفكير أن الأفضل إنجاز العمل فتبقى فى المنزل .

هذه عدة أمثلة تبين سلوك الإنسان فى وجهات ثلاث ، ويوصف هذا السلوك بأنه إرادى . والإرادة ميل إلى العمل ، وبذلك تدخل فى باب النزوع . ومن الخطأ الشائع بين الذين كتبوا فى علم النفس من قديم ، أن يقصروا القسم الثالث من الظاهرة النفسية وهو النزوع على الإرادة ، فيقولون إن الظواهر النفسية ، هى إدراك ووجدان ونزوع أو إرادة .

وليس الأمر كذلك ، لأننا رأينا أن هناك نوعاً من السلوك ينزع إليه الإنسان بالفطرة ، وهذه هى الغرائز . فنزوع الطفل إلى مص أصبعه هو نزوع غريزى غير

---

(١) La volonté

إرادى ، وهناك طائفة أخرى من الأعمال ينزع الإنسان إلى أدائها عن طريق العادة ، وهو يسلك فى هذه الحالة كالآلة التى تعمل دون شعور . فالمدخّن الذى يضع يديه فى جيبه دون تفكير ويخرج لفافة التبغ ويشعلها يؤدى هذا العمل آلياً ، دون دخل للإرادة فى ذلك .

فامتصاص الطفل لأصبعه نزوع غريزى ، وإشعال لفافة التبغ نزوع عادى ، وخروج الكاتب من منزله الذى وصفناه فى بدء هذا الفصل ، نزوع إرادى .

فبماذا تمتاز الإرادة ؟

تمتاز بالشعور بالغرض الذى يريده الإنسان ، وبإدراك العمل قبل أدائه ، ووجود نية التنفيذ ؛ بينما الغريزة عمياء والعادة آلية .

خطوات الإرادة :

يسير العمل الإرادى الكامل فى أربع خطوات .

١ — الشعور بغرض .

ذلك أن الأعمال الإرادية لا يساق الإنسان إلى عملها سوقاً ، بل يكون الغرض من العمل حاضراً أمام ذهنه ، ويصحب وجود الغرض الشعور به ، كالجائع يريد أن يأكل ، والظمآن أن يشرب ، والمتعب أن يجلس ، والمتبرم أن يخرج للرياضة . فكثير من أعمالنا نشعر بالغرض من عملها ، ونفكر فى أدائها من أجل ذلك .

٢ — الروية[1] .

لتحقيق الفكرة التى تطرأ على الذهن ، قد يجد الإنسان عدة مسالك لتنفيذها ،

---

(١) délibération.

بعضها يؤدى إلى الغرض ، و بعضها لا يؤدى ، و بعضها أفضل من البعض الآخر . فإذا حصل طالب على إجازة الدراسة الثانوية ، وأراد أن يلتحق بإحدى كليات الجامعة ، فإنه يتروى أى الكليات أفضل ؟ وقد يجد أن تتمة الدراسة العالية لا فائدة منها ، فيلتحق بوظيفة أو يفتح محلاً تجارياً . فهذه مسالك مختلفة ، ينعم الطالب فيها الفكر ، و يتروى قبل أن يعزم على السير فى أحدها . الروية عبارة عن تمحيص الآراء المختلفة ، والفحص عن البواعث التى تتجاذب صاحبها كالميول والرغبات والعواطف التى تمتزج بالشخص وتجتذبه إلى السير فى طريق معين . وحينئذ يبصر صاحب الروية هذه المنازع والأهواء المختلفة ، و يشعر بها ، و يضع لكل منها قيمة وقدراً . فروية الطالب حين يبحث عن دراسة عالية ، لا تكون فكراً خالصاً مجرداً عن نفسه ، ولكنه يضع فى الميزان الرغبات المختلفة التى تتنازعه ، فإذا كان يميل إلى الخطابة دخل كلية الحقوق ، و إذا كان يرغب فى السيطرة توجه إلى المدرسة الحربية .

وقد لا يمر العمل الإرادى بدور التروى ، وحينئذ يندفع الشخص إلى أداء العمل . وغالباً ما يكون الاندفاع فى الأمور البسيطة التى تعترض الإنسان ، أما جلائل الشئون فلا يبت صاحبها فيها إلا بعد روية و إمعان .

٣ — العزم[١] .

هذه المرحلة هى التى يمتاز بها العمل الإرادى و يبدأ حقاً . والعزم هو الاستقرار عند رأى من الآراء التى تحقق الغرض الذى نريده ، و يلحق العزم التصميم ، أى الإلحاح فى العزم وعدم الرجوع عنه . فالطالب بعد أن يستعرض أنواع

---

(١) décision.

الدراسات المختلفة ، تقف رويته عند إحدى المدارس العالية ، ككلية الحقوق مثلا ، ثم يصمم على هذا العمل .

٤ — التنفيذ[١]

يجب أن يصحب العزم تنفيذ ما يصمم عليه صاحب الإرادة حتى يستتم العمل . والتنفيذ ضرورى لأنه المحك الذى يبين إذا كانت الإرادة صادقة أم لا . وعلى الأقل ينبغى أن توجد محاولة التنفيذ . وقد تقوم عقبات خارجية فى سبيل التحقيق النهائى للعمل ، وهذه الظروف الخارجية لا تهمنا نفسانياً . فالطالب الذى يصمم على الالتحاق بكلية الحقوق ، قد لا يجد معه المال الكافى لدفع مصاريف الدراسة فيتقاعد .

هذا التحليل للأعمال الإرادية الذى يفصلها إلى عدة مراحل تجتازها ، هو الفكرة القديمة التى وصل إليها علماء النفس حتى عهد قريب . ولكن علماء النفس الحديثين يرون فى العمل الإرادى غير هذا الرأى .

فالإرادة تعارض عدة رغبات ، فيعلو الإنسان بإحداها على الباقية ، ولهذا تصحب الإرادة دائماً بالمجهود .

ذلك أنه من الخطأ القول بأن العمل لا يبدأ إلا بعد امتحان البواعث والدوافع[٢] فى مثل ذلك الهدوء الذى ذكرنا ، بحيث يستعرضها الإنسان أمامه ويرجح إحداها على الأخرى . بل الواقع أن أى باعث إلى العمل مثل الخروج إلى الرياضة ، أو التراجع مثل البقاء فى المنزل ، حين يلوح فى الذهن يندمج فى الحال مع بواعث أخرى ، ويتسق معها فيقوى ، أو يدخل فى صراع مع البواعث

---

(١) Exécution

(٢) motif, mobile.

النفسية الموجودة ويضعف . مَثَلُ هـذه البواعث الجديدة مَثَل المـاء الذى نلقيه فى النهر ، فيحمله المجرى ويختلط بمـاء النهر ، ويتأثر به ويؤثر فيه ؛ فأى فكرة جديدة تلوح فى الذهن تندمج فى الحال مع الحياة النفسية للشخص وتصبح عملاً أو مبدأً لعمل .

أما تقسيم البواعث العقلية إلى أقسام ، بعضها يساعد الإرادة ، وبعضها لا يتفق معها ، فهو تقسيم صناعى ، لأن الحياة النفسية كلٌّ لا يتجزأ . وعلى ذلك فإن فصل العزم عن الروية تعسف يجعل الإرادة قوة مستقلة عن العواطف والفكر ، وليس الأمر كذلك كما ذكرنا عند تحليل الظاهرة النفسية .

والحقيقة أننـا إذا أنعمنا النظر فى المراحل السابقة ، نجد أن المرحلة الأخيرة وهى التنفيذ لا شأن لهـا بعلم النفس ، لأن التنفيذ يتوقف إلى حد كبير على الظروف الخارجية . أما الشعور بغرض أو باعث ، والروية ، فإنهما مظهران للإدراك والعاطفة . ولا يبقى للإرادة إذن إلا مرحلة العزم التى تصبح امتـداداً للتفكير أو العاطفة .

وقد خرج العلماء من هذا التحليل والنقد إلى نظريتين : الأولى تنادى بأن الإرادة ليست فى النهـاية إلا مزيجاً من الأحكام العقلية ؛ فالعمل الإرادى هو نتيجة انتخاب حكم من بين حكمين أو عدة أحكام ، لأنه أفضل وأكثر فائدة . بينما النظرية الثانية تقول بأن الإنسان عبـارة عن مجموعة من الميول تتجاذبه ، وانتصار أحد هذه الميول يؤدى إلى العمل . وعلى ذلك فالإرادة قوة تعمل سابقة على كل حكم .

وكلتا النظريتين على حق من بعض الجهات .

لو أننا نستمع إلى كل باعث يلوح لنا ، أو نساق بكل دافع يحركنا ، لكنا

نعمل عن اندفاع لا عن إرادة ، إذ أن الإرادة هى الشعور بالرقابة الشخصية على البواعث والدوافع المختلفة ، فينتج عن هذه الرقابة انتخاب الطريق الذى نريد أن نسلكه ، والحكم بأفضلية شيء على آخر ، أو ميل على ميل . والإرادة أيضاً هى المقدرة على إيقاف البواعث العقلية والدوافع النفسية بدلاً من المبادرة إلى تنفيذها . فالانتباه إلى العمل ، والشعور بالتفضيل والترجيح ، هو أساس « الحرية » عند الإنسان ؛ وليس الحيوان حراً ، لأنه ينقاد لدوافعه الباطنة التى تحركه ، فلا ينظر هل هى مفيدة أو مضرة ، فاضلة أو وضيعة ؟ فمصدر الأعمال لا يرجع إلى إرادة الحيوان بل إلى هذه الدوافع ، لذلك كان الحيوان عديم الأخلاق .

ونستخلص من كل هذا ثلاث صفات عامة للعمل الإرادى :

١ — أن الروية تقتضى نوعاً من الصراع بين البواعث والدوافع .

٢ — يحدث انتخاب من بين هذه البواعث والدوافع . لهذا كانت الإرادة تتطلب شيئاً من التردد ولو قليلاً .

٣ — يصحب الإرادة شعور بالحرية ، هو الذى يميزها عن الأعمال الآلية .

الحركات الإرادية :

يؤدى الجسم كثيراً من الحركات منها ما هو إرادى ، ومنها ماهو غير إرادى . ومن الحركات غير الإرادية ما ينتج عن تقلص العضلات بطبيعتها كالمثانة . وأغلب الحركات عند الحيوان تصدر على هذا الوجه ، مثال ذلك : إذا انتزعنا جزءاً من أمعاء حيوان كالأرنب ، بعد أن يوضع فى محلول خاص ووسط ملائم من الحرارة ، فإن العضلات تظل تتقلص وحدها ؛ أما عند الإنسان فإن أغلب الحركات غير الإرادية تخضع للجهاز السمبتاوى والباراسمبتاوى .

وهناك بعض حركات أطلقنا عليها اسم الفعل المنعكس البسيط ، وهى التى تصل إلى مراكز النخاع الشوكى فقط ، مثل حركة الرجْل عند ما تضرب أسفل الركبة ضربة خفيفة .

وهناك حركات أخرى يصدر الأمر بها من مراكز الحركة فى المخ ، ومنها إلى الألياف النازلة أو المصدرة حتى النخاع المستطيل والنخاع الشوكى ، ثم إلى أعصاب الحركة . هذه الحركات الصادرة عن المراكز العليا فى المخ ، تسمى الحركات الإرادية .

والموازنة بين الإنسان والحيوان فيما يختص بالإرادة ، توضح لنا طبيعة الفعل الإرادى . فالحيوانات الدنيئة لا إرادة لها ، لأن سلوكها يكون بالأفعال المنعكسة أو الغريزة ، ومع ذلك فقد رأينا أن الحيوان قد تطرأ عليه ظروف تضطره إلى تغيير سلوكه ، مثل الأرضة[1] التى تطعن فريستها وتجرها إلى الجحر ، ثم تعدل طريقتها بالمحاولات الحسية ، والتجارب العملية ، وحذف الأخطاء .

أما الأنسان فإنه لا ينزل إلى ميدان التجربة العملية والتلمّس ، بل «يتصور» العمل والطرق المختلفة التى تؤدى إلى تحقيقه ، ثم ينتهى بفكره إلى أفضل طريق . مثال ذلك القط حين يرى باباً مقفلاً ، فيحاول فتحه عملياً ، ويخدش بمخالبه ، ويأتى بكثير من المحاولات . أما الإنسان فإنه يقف أمام الباب ثم يفكر كيف يفتحه ؟ بالعنف ؟ بمعالجة الرتاج ؟ ... حتى إذا استقر تفكيره عند رأى اندفع إلى تنفيذه ، فمحاولات الإنسان عقلية ، إذ يبصر بذهنه الخطأ والصواب .

وهناك إرادة كفٍ عن الفعل ، لقيام موانع توقف العمل ، كالكاتب الذى يريد أن يخرج للنزهة ، ثم يجد أن ثمة الكتابة أوجب ، فيمنع نفسه من الخروج بإرادته .

---

(١) Guêpe.

أمراض الإرادة :

للمراكز العليا من المخ نوع من الإشراف على المراكز السفلى . وقد رأينا أن الحركة الإرادية تصدر عن المراكز العليا فى المخ ، ومنها إلى النخاع المستطيل والنخاع الشوكى ، ثم إلى أعصاب الحركة ، وفساد أى مركز من هذه المراكز يؤدى إلى اضطراب الحركات الإرادية . فالشلل يحدث اضطراباً فى الإرادة ، ويرجع ذلك إلى فقدان الرقابة على الحركات ، فإذا أراد المريض أن يتناول كوباً من الماء ، فإنه لا يستطيع أن يسدد يده نحوه ، بل تظل يده تتذبذب مدة قبل أن يقبض عليه . وفساد مراكز الحركة يؤدى بالمريض إلى أن يفعل حركات صبيانية ، ويجسم الانفعالات لأسباب تافهة ، وينتقل من الضحك إلى البكاء بسهولة ، ويكثر عنده الاندفاع ، ويكرر بعض الأعمال والجمل تكراراً آلياً ، ويفقد الشعور بالمسئولية ، ويميل إلى الهذر الخالى من الأدب .

وقد تؤدى الأمراض العصبية والنفسية ، التى لا تصحب بفساد المخ ، إلى مرض الإرادة . وأول هذه الأمراض هو سهولة الإستهواء ، أو الميل إلى الانقياد لتأثير أفكار الغير عن طريق المخاطبة أو القدوة . والأطفال والجماعات أكثر قبولاً للإيحاء عادة ، لأن الطفل أو الفرد فى الجماعة يفقد الرقابة الشخصية على فكره ، وتضمحل شخصيته ، فيذوب فى غيره . بينما الشخص العادى يفكر وينتقد ويقاوم مقاومة عقلية ، بدلاً من الانقياد الأعمى الآلى لأوامر الغير . وهنا يجب علينا ألا نخلط بين هذا الإيحاء المريض ، وبين الإيحاء الصحيح الذى يجرى بين الناس عادة[١] .

---

(١) راجع صفحة ٦٨ .

وتزداد قابلية الاستهواء عند بعض العصبيين فى حالة الصحو ، وتكون أكثر شدة فى التنويم المغناطيسى أو الجولان النومى[١] .

ومن أمراض الإرادة العناد ، وهو عكس الاستهواء . والعنيد هو الشخص الضعيف الذى يريد أن يستر ضعفه بالعناد الأعمى الخالى من النقد العقلى والتفكير . وقد يكون الدافع لهذا العناد حب الظهور المعوج ، كالذين يتبعون مبدأ « خالف تعرف » . وحب المخالفة والمعارضة نوعان من السلوك أساسهما الدفاع ضد إرادة الغير ، ولكنه دفاع ذو مستوى منحط ، إذ أن المخالفة لا تصحب بالمناقشة والأدلة . وكثيراً ما يوجد العناد وحب المخالفة والمعارضة عند الأطفال ، وذلك لقصور عقولهم .

ومن أمراض الإرادة الفكرة الثابتة[٢] ، وهى تلك التى تستولى على صاحبها فتقوده وتسيره دون أن تجد مقاومة أو نقداً . فالإنسان فى هذه الحالة يكون فى شبه ذهول عن كل شىء إلا عن هذه الفكرة .

ومن هذه الأمراض أيضاً ما يعترى صاحب النزوات ، وهو الشخص الذى يجرى باندفاع وراء كل نزوة تطرأ على ذهنه . والنزوة عبارة عن فكرة تؤدى سريعاً إلى العمل ، دون أن يبحثها صاحبها فى ضوء العقل .

ومن الأمراض الشائعة فى الإرادة التردد ، حيث يظل المريض متردداً بين فكرتين ، فلا يستطيع أن ينتخب إحداهما ، ولا يصل إلى العزم والتصميم . ومرض العزيمة يجعل الإنسان حائراً لا يستقر على رأى حتى فى الأشياء البسيطة التافهة ، كشراء قلم رصاص ، أو كراسة ، أو منديل . والحقيقة أن العمل نفسه ليس

---

(١) Somnambulisme.

(٢) Idée fixe.

عسيراً أمام المتردد ، ولـكنه يفقد الاستقلال فى الرأى . ولذلك فإن مثل هذا الشخص يخضع بسهولة لإيحـاء الغير ، وينقاد له وينفذ العمل الذى يتردد فيه . فمرجع الاضطراب هنا هو صعوبة الخروج من هذا الصراع الفكرى . مثل هؤلاء المترددين يحبون دائماً أن يكونوا خاضعين لغيرهم فى الحياة الاجتماعية .